صفحات مطوية من حياة ابن خلدون في مصر

د. الحاج عيفة

قسم التاريخ، جامعة الجزائر2

ملخص

تناولنا في هذا البحث الفترة التي قضاها في مصر والتي تعدت عقدين من الزمن وما ميزها عن غيرها من الفترات السابقة، حيث حظي ابن خلدون في مصر بالاهتمام والرعاية من لدن معاصريه، من أصدقاء وأصحاب جاه وسلطة وحكام، وبالمقابل خص ابن خلدون في كتاباته مصر بالمدح والثناء لما قدمت له من رغيف العيش الكريم وما وفرت له من مكاسب وامتيازات لم يجدها في بلاد المغرب ولا حتى في الأندلس. فقد تفوق ابن خلدون عن معاصريه في إصدار مؤلفه «العبر» الذي لم تعرف البشرية قاطبة كتابا مثله.

الكلمات الدالة: ابن خلدون؛ المغرب الإسلامي؛ مصر؛ القضاء؛ التدريس.

Abstract

We will discuss, the life of Ibn-Khaldun in Egypt, according to various Arabic historical sources which dealt with his life and are quoted in these documents. Ibn Khaldun moved from the Maghreb and settled in Egypt around 1380, and from Alexandria he chose Cairo as his final stay to live in. He admired it and was attracted by it grandeur, and he said, «He who have not the chance to see Egypt did not know about the power of Islam». However, Ibn Khaldun when in Egypt enjoyed many privileges and made fortune. He was appointed Qadi for more than six times and held the title of professor and was sent as an ambassador to Syria Timur, of the Mongol. He had been supported by the Mamluks rulers, mainly the Sultan al-Malik udh-Dhahir Barquq and under the Mamluks dynasty, Egypt had became the center of the Arabic culture. Ibn Khaldun still influenced many readers throughout the learned world.

Keywords: Ibn Khaldun; Egypt; Maghreb; Qadi; Syria; Timur; Mamluks.

Résumé

La présente contribution revisite une période importante de la vie du savant Abderrahmane Ibn-Khaldun qui est son installation en Egypte vers 1380. Les années qu'il a vécues au Caire et à Alexandrie lui procurèrent autant de satisfaction et de reconnaissance que de peine, mais elles furent déterminantes dans la formation de sa pensée et de son œuvre ainsi que la reconnaissance de sa notoriété.

Mots clés: Ibn Khaldun; Egypte; Maghreb; Qadi; Syrie; Timur; Mamlukites

مقدمة

تعددت الدراسات حول المفكر ابن خلدون وأقيمت له الأيام الدراسية والملتقيات والمؤتمرات العلمية لإحياء ذكره وتخليد آثاره في المغرب العربي والمشرق وحتى في العالم الغربي. كما ألفت الكتب حول هذه الشخصية، وحفلت المجلات والصحف بمختلف البحوث عنه، وكتبت حول أعماله العلمية حول شخصيته في الجامعات ودور العلم. لكن حياته في مصر التي كانت مقام شيخوخته ومثوى رفاته والتي استغرقت أربعة وعشرون سنة كاملة لم تلق عناية كبيرة من الباحثين والدارسين، وهذا ما نرغب في الإستدراك في تناول هذا المقال.

1. بداية الرحلة إلى المشرق

تبدأ حياة ابن خلدون في مصر من أو آخر سنة 784هـ/1382م وتستمر إلى حين وفاته سنة 808هـ/ 1406م، وقد عمل خلالها في سلك القضاء والتعليم في الأزهر الشريف، وغيره من المدارس والمساجد الموجودة في مصر في ذلك الوقت. وقال في وصفها: «فرأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوه وتزهر الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه...» وفي هذه المرحلة لا يمكن إغفال ما حصل له من شدة وألم، بسبب هلاك جميع أفراد أسرته في البحر، وقد وافق ألماً آخر فقال معبراً عنه» فكثر الشغب عليَّ من كل جانب، وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة، ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفينة فأصابها قاصف من الرعد فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود فعظم المصاب والجزع» (عنان،1933، ص 45)

وفي عام (803هـ/1401م) كما التقى القائد المغولي تيمور لانك الذي جاء لاجتياح العالم الإسلامي في ذلك الوقت، رداً على معركة عين جالوت، فوصلت جيوشه إلى حلب فأرسل إليه سلطان مصر وفداً لمفاوضته حتى يرجع عن دخول الشام، وكان ابن خلدون على رأس هذا الوفد لدهائه وقوته في مثل هذا الأمر، وقصته معه مشهورة، ومما جاء في وصفه له، قوله: «..إنما هو شديد الفطنة والذكاء، كثير البحث واللجاج بما يعلم وبما لا يعلم، عمره بين الستين والسبعين»[1].

1. أعمال مهرجان ابن خلدون المنعقد في القاهرة من 2 إلى 6 يناير 1962، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجائية، القاهرة 1962م.

لم يجد ابن خلدون في تونس ما كان ينشده من هدوء وسكينة فانتهز فرصة وجود السلطان في تونس، ووجود سفينة مصرية في مرساها تقصد الإسكندرية في منتصف شعبان سنة 784هـ / أكتوبر سنة 1382م. ألح على السلطان في الإذن له بالسفر لقضاء الحج، وركب البحر بمفرده تاركا أسرته في تونس. فوصل الإسكندرية يوم عيد الفطر سنة 784 هـ/1382م. (ابن خلدون، العبر، 1981) وكان قضاء الفريضة حجته في السفر إلى المشرق، ولكن ما يقصده ابن خلدون من الحوادث قبل ذلك يدل على أن مغادرته لتونس كانت فرارا من ضيق العيش وكثرة الدسائس كان يرجو أن يقضي بقية أيامه بمصر في هدوء ودعة، وأن ينعم بذلك الاستقرار الذي لم تهيئه له بالمغرب حياة النضال والمغامرة. وكان يومئذ في الثانية والخمسين من عمره، وكانت القاهرة يومئذ موئل التفكير الإسلامي في المشرق والمغرب، لبلاطها شهرة واسعة في حماية العلوم والآداب. (ابن بطوطة، 1987)

1.1 القاهرة حاضرة العالم الإسلامي

وصل ابن خلدون إلى القاهرة في أول ذي القعدة سنة 784هـ/ نوفمبر 1382م، فبهرته ضخامتها وبهاؤها كما بهرت سلفه ومواطنه الرحالة ابن بطوطة قبل ذلك بنصف قرن. (ابن بطوطة، 1987)

كان المجتمع القاهري يعرف الكثير عن شخصية ابن خلدون، وكانت نسخ من مؤلفه الضخم ولاسيما مقدمته الشهيرة قد وصلت إلى مصر وغيرها من بلدان المشرق.

لم يكد يحل بالقاهرة حتى أقبل عليه العلماء والطلاب من كل صوب، ويحدثنا ابن عن ذلك قائلا: «وانثال على طلبة العلم بها يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة،ولم يوسعوني عذرا» (ابن تغري، 1984، ص 300) فيقول أبو المحاسن بن تغري بردي في ترجمته لابن خلدون: «واستوطن القاهرة وتصدر للإقراء بالجامع الأزهر مدة اشتغل وأفاد» (ابن تغري بردي 1984، ص 300) أما السخاوي فيصف قدوم ابن خلدون إلى القاهرة : «وتلقاه أهلها وأكرموه وأكثروا ملازمته والتردد عليه، بل تصدر للإقراء بالجامع الأزهر مدة». (السخاوي، 1992، ص367)

إنكب ابن خلدون على التدريس بالأزهر، واختص بتدريس الحديث والفقه المالكي، وكانت هذه الدروس خير إعلان عن غزير علمه وشاهد بحثه، وساحر بيانه، وكان ابن خلدون يخلب الباب سامعيه بمنطقه. وهذا ما يحدثنا به المؤرخ تقي الدين المقريزي الذي جالسه ودرس عليه (السخاوي، 1992)، كما يقول عنه والحافظ ابن حجر: «وكان لسانا فصيحا، حسن الترسل وسط النظم، مع معرفة تامة بالأمور خصوصا متعلقات المملكة». (ابن حجر، 1998، ص711)

لكن صفاء الأفق من حوله لم يدم طويلا كما سنرى، وفي أثناء ذلك اتصل ابن خلدون بأمير من أمراء البلاد يدعى علاء الدين الطغا الجواني (السخاوي،1992) فشمله برعايته، وساعده على التقرب من السلطان والاتصال به، وكان السلطان يومئذ الظاهر برقوق، الذي تولى الملك قبل مجيئ ابن خلدون للقاهرة بأيام قلائل أواخر رمضان سنة 784 ه/1382مـ، فأكرم وفادة المؤرخ واهتم بأمره. يقول ابن خلدون في هذا الصدد : « فأبر مقامي وآنس الغربة ووفر الجراية من صدقاته، شأنه مع أهل العلم». (ابن خلدون، التعريف،1981، ص 266). ولم يمض وقت كثير حتى خلا منصب للتدريس بالمدرسة (القمحية) بجوار جامع عمرو وهي من مدارس المالكية الرائد في القاهرة حيث عينه السلطان فيه، ويوصف مجلسه وبقاءه الأول في هذه المدرسة يقوله: «وانفض ذلك المجلس وقد شيعتني العيون بالتجلية والوقار».(ابن خلدون، 1981، ص267)

2.1 ابن خلدون وسلك القضاء

أما المنصب الثاني الذي ظفر به ابن خلدون في القاهرة عند المماليك هو تعيينه قاضيا لقضاة المالكية في أواخر جمادى الآخرة سنة 786هـ/أغسطس 1384م[1]، فكان القاضي المعزول جمال الدين بن خير الكندي. وكان ارتفاعه إلى هذا المنصب الذي يعتبر من أهم مناصب الدولة. ويقول ابن خلدون في سخرية : «... وأقمت على الاشتغال بالعلم وتدريسه إلى أن سخط السلطان قاضي المالكية يومئذ في نزعة من النزاعات الملوكية، فعزله واستدعاني للولاية في مجلسه وبين أمرائه، فتفاديت من ذلك وأبى الإمضاء»، وإنما اختاره السلطان كما يقول: «تأهيلا لمكانه وتنويها بذكره». (السخاوي، 1992، ص368)

إنَ عمله بالقضاء في تلك الفترات المتقطعة لم تكتمل خمس سنوات فقط من حياته بالقاهرة وطيلة إقامته في مصر. ونستطيع أن نقدر أن ولاية ابن خلدون لخطة القضاء لم تكن قد جاءت عادية فقد كان أجنبيا، ولكن تقدمه في حظوة السلطان وفي نيل المناصب، وكانت مناصب التدريس والقضاء دائما مطمع جمهرة الفقهاء والعلماء المحليين، ولم يكن مما يحسن وقعه لديهم أن يفوز بها الأجانب الوافدون دونهم، وإذا فقد تولى العلامة المغربي منصبه في جو يشوبه كدر الخصومة والحسد.

فقد ظهرت من حوله بوادر الحقد والسعاية إذ يقول ابن خلدون إنَ سبب هذه العاصفة التي ثارت حول توليه القضاء، هوما عما كان يسود القضاء المصري يومئذ من فساد واضطراب، وما كان عليه معظم القضاة والكتاب والشهود من جهل وفساد، وأنه

1. يذكر ابن خلدون أن تعيينه في هذا المنصب وقع لأول مرة في رجب سنة 786هـ، ولكن الروايات المصرية كلها متفقة على أن هذا التعيين كان في جماد الآخرة.

محاولته إقامة العدل الصارم المنزه عن كل شائبة، وقمع الفساد بجزم وشدة، وسحق كل سعاية، يقول: «... فقمت في ذلك المقام المحمود ووفيت عهد الله في إقامة رسوم الحق وتحري العدالة لا تأخذني في الله لومة، مساويا بين الخصمين، آخذ الحق الضعيف من الحكمين معرضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين...». (ابن خلدون، العبر، 1981، ص 453)

ثم يعدد نواحي الفساد التي شهدها وجد في إصلاحها، وكيف أحتقر شفاعات الأعيان والأكابر خلافا لما كان عليه زملاؤه القضاة من قبل، حتى ثار عليه السخط من كل ناحية، وكثرت في حقه السعاية لدى البلاط. (ابن خلدون، 1981)

وهذا التعليل الذي يقدمه لنا ابن خلدون عن سبب الحفيظة عليه، بل هذا ما تسلم به التراجم المصرية المعاصرة والقريبة من عصره، فيقول أبو المحاسن مشيرا إلى ولاية ابن خلدون للقضاء : «... فباشره لحرمة وافرة، وعظمة زايدة، وحمدت سيرته ودفع رسائل أكابر الدولة، وشفاعات الأعيان، فأخذوا في التكلم في أمره...» (ابن تغري بردي، 1984 ص454). انقضت العاصفة على ابن خلدون لأشهر قلائل من ولايته وكثر السعي في حقه والإغراء به حتى أظلم الجو بينه وبين أهل الدولة على حد تعبيره، وفقد حظوته وما كان يتمتع به من عطف ومؤازرة.

2. ابن خلدون وعرضته للمحن والمصائب

وأصاب إبن خلدون في ذلك الحين نكبة أخرى هي هلاك زوجه وولده وماله. وكان منذ قدومه ينتظر لحاق أسرته به، ولكن سلطان تونس حجزها عن السفر ليرغمه بذلك على العودة إلى تونس فتوسل إلى السلطان الظاهر أن يشفع لديه في تخليت سبيل أسرته، ففعل وأطلق سراح الأسرة وركبت البحر إلى مصر. ويروي لنا ابن خلدون نبأ الفاجعة في قوله : «... ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفينة فأصابها قاصف من الريح فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم المصاب والجزع، ورجح الزهد، واعتزمت على الخروج من المنصب». (السخاوي، 1992، ص.368)

ولم يمض وقت قليل حتى عزل من منصب القضاء. جاء هذا العزل محققا لرغبته إذ يقول : «... وشملتني نعمة السلطان أيده الله في النظر بعين الرحمة وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها، و لا عرفت فيما زعموا مصطلحها، فردها إلى صاحبها الأول، وأنشطني من عقالها، فانطلقت حميد الأثرة مشيعا من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء، تلحظني العيون بالرحمة، وتتناجى الأمل في العودة». (وافي، 1962، ص121)

يؤكد لنا ابن خلدون أن عزله كان نتيجة التحامل والحقد والسعاية فقط، وأنه أثار استياء المجتمع القاهري، وأنه غادر منصبه موفور الكرامة والهيبة، وكان عزل ابن خلدون عن منصب القضاء لأول مرة في السابع من جمادي الأولى سنة 787هـ/ يوليه 1385م.

1.2 ابن خلدون ومهنة التدريس

لم يمض سوى قليل حتى عين السلطان ابن خلدون لتدريس الفقه المالكي بمدرسته الجديدة التي أنشأها في حي بين القصرين المدرسة الظاهرية البرقوقية. وأحتفل كعادته بالدرس الأول، وألقى خطابا بليغا فيه للسلطان، وشغل بالدرس حتى كان موسم الحج عام 789هـ/1387م فاعتزم عندئذ أداء الفريضة فأذن له السلطان وغمره بعطائه، وغادر القاهرة في منتصف شعبان من نفس السنة، ثم عاد بعد أداء الفريضة، فوصل القاهرة في جمادي الأولى سنة 790هـ/1388م، وقصد السلطان توا وأخبره بأنه دعا له في الأماكن المقدسة، فتلقاه السلطان بالعطف والرعاية. ثم خلا كرسي الحديث بمدرسة صرغتمش[1]، فولاه السلطان إياه بدلا من تدريس الفقه في المدرسة السلطانية، وجلس للتدريس فيها في المحرم سنة 791هـ/1389م، وألقى خطاب الافتتاح كعادته في حفل فخم، وأعلن أنه قد قرر للقراءة في هذا الدرس كتاب الموطأ للإمام مالك. فقد تكلم عن مالك ونشأته وحياته، يقول واصفا ذلك: «... ونقض ذلك المجلس، وقد لاحظتني بالتجلية والوقار العيون، واستشرت أهليتي للمناصب القلوب، وأخلص النجا في ذلك الخاصة والجمهور». (ابن خلدون، 1981، ص 21). ثم عين في وظيفة مشيخة نظارة خانقاه بيبرس، وهي يومئذ أعظم، الخوانق أو ملاجئ الصوفية[2]، فزادت جرايته، واتسعت موارده، ولكن أمد سكينته لم يطل، فقد نشبت فتنة خطيرة أودت بعرش الظاهر برقوق بطلها ومدبرها الأمير يلبغا الناصري نائب حلب، وزعيم عصبة قوية من الأمراء والفرسان، فسار الى القاهرة في أتباعه وتحول أنصار برقوق عنه، ففر من القلعة، ودخل يلبغا الناصري القاهرة،وقبض على برقوق وأرسله سجينا إلى الكرك في جمادي الأولى سنة 791هـ /1388 م.

ولكن ثورة أخرى نشبت بقيادة أمير آخر يدعى منطاش، فقبض على الناصري، وسار إلى دمشق لمحاربة برقوق الذي أستطاع أن يفر من سجنه، فهزمه برقوق وعاد إلى القاهرة ظافرا منصورا، وأسترد عرشه في صفر سنة 792 هـ/ 1389م ، لبضعة أشهر فقط من عزله.

قد عانى ابن خلدون من جراء هذه الفتنة، ففقد مناصبه و أرزاقه كلها أو بعضها بسقوط الحزب الذي يتمتع بعطفه ورعايته. فلما عاد الظاهر برقوق الى العرش يقول ابن خلدون عن عودته : «... ثم أعاده إلى كرسيه للنظر في مصالح عباده، وطرقه القلادة التي ألبسه كما كانت، فأعاد لي ما كان أجزاه من نعمته». (ابن خلدون، العبر، 1981، ص462) ولبث ابن خلدون على ذلك أعواما ينقطع للبحث والدرس وهو يقف بالتعريف بنفسه عند هذه المرحلة، حتى مستهل سنة سبع وتسعين 797هـ/1394م.

1. كان موقع هذه المدرسة شمال الجامع الطولوني على مقربة من القلعة.
2. كانت هذه الخانقاه الشهيرة تقع في طريق باب النصر على مقربة منه.

ليس في حياة ابن خلدون في هذه الفترة ما يستحق الذكر سوى سعيه إلى عقد الصلات بين البلاط القاهري وسلاطين المغرب، ويصف المراسلة والمهاداة بين صلاح الدين وبني عبد المؤمن ملوك المغرب، وبين الناصر قلاوون وملوك بني مرين، ثم يعطف على مساعيه في عقد الصلة بين الملك الظاهر وسلطان تونس، وملخصها أنه كتب إلى سلطان تونس يحثه على إهداء ملك مصر، فأرسل إليه هدية من الجياد النادرة، ولكنها غرقت مع السفينة التي كانت تحمل أسرة المؤرخ كما قدمنا.

ورد الملك الظاهر بإهداء سلطان تونس، ثم بعث إلى المغرب ليشتري عددا من الجياد، فزود ابن خلدون الرسل بالإرشاد والتوصية. لكنهم عادوا بهدية فخمة كان سلطان تونس قد أعدها وتأخر إرسالها، وعدة هدايا أخرى قدمها أمراء المغرب، ومنها خيل مسومة، وعدد من السروج المذهبة. ويصف ابن خلدون يوم تقديم الهدايا وعرضها يقول بأنه شعر يومئذ بالفخر وحسن الذكر: «... تناول بين هؤلاء الملوك من السعي في الوصية الثابتة على الأبد» (ابن خلدون، التعريف، 1981، ص 346)

لبث ابن خلدون بعيدا عن منصب القضاء زهاء أربعة عشرة عاما، ولما توفي ناصرالدين التنسي قاضي المالكية في منتصف رمضان 801 هـ/ مايو1398م، كان ابن خلدون عندئذ في الفيوم يعنى بضم قمح ضيعته التي يستحقها من أوقاف المدرسة القمحية فاستدعاه السلطان وولاه القضاء للمرة الثانية. وبعدئذ توفي السلطان في منتصف شوال، فخلفه ولده الناصر فرج، وسرى الاضطراب إلى شؤون الدولة، فلما استقرت الأمور، استأذن المؤرخ في السفر إلى بيت المقدس، فأذن له وجال ابن خلدون في المدينة المقدسة، يتفقد آثارها الخالدة، وشهد المسجد الأقصى، وقبر الخليل، وآثار بيت لحم. يقول في وصفه لبيت المقدس : «... وبناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم، فنكرته نفسي، ونكرت الدخول إليه». (ابن خلدون، 1981، ص 346)

ثم عاد من رحلته، ودخل القاهرة في أواخر رمضان سنة 802 هـ/1399م عزل ابن خلدون للمرة الثانية من منصب القضاء. هذا العزل كان نتيجة لسعي منظم من خصوم المؤرخ. لم يمض قليل على ذلك حتى جاءت الأنباء بأن تيمور لنك قد أنقض بجيوشه على الشام واستولى على مدينة حلب في ربيع الأول سنة 803 هـ/ 1400م ثم أخترق الشام جنوبا إلى دمشق. فروعت مصر لهذه الأنباء، فهرع الناصر فرج بجيوشه لملاقاة قائد التتار، واصطحب معه القضاة الأربعة وجماعة من الفقهاء والصوفية ومنهم ابن خلدون.

2.2 انتقال ابن خلدون إلى الشام ولقاءه بتيمو لنك

كان سفر الحملة في ربيع الثاني سنة 803 هـ/1400 م، فوصلت إلى دمشق في جمادي الأولى، ونزل ابن خلدون مع جمهرة الفقهاء والعلماء في المدرسة العادلية، واشتبك جند مصر مع جند التتار في معارك محلية ثبت فيها المصريون، وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين. ولكن مؤامرة دبرها نفر من بطانة السلطان لخلعه اضطرته للعودة إلى مصر، فوصلها في جمادي الآخرة.

وهنا تغلب المؤرخ نزعة المغامرة كما تغلبه الأثرة. ويحدثنا المؤرخ عن ذلك بصراحة، فيقول: «... وبلغني الخبر، فخشيت البادرة على نفسي، وبكرت سحرا إلى جماعة القضاة عند الباب، وطلبت الخروج، أو التدلي من السور لما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر» (ابن خلدون، 1981، ص 348). وانتهى المؤرخ بإقناع زملائه فأدلوه من السور، وألقى عند الباب جماعة من بطانة تيمولنك، فالتمس منهم مقابلة تيمور، فساروا به إلى المعسكر وأدخل إلى خيمة القائد. ويصف ابن خلدون ذلك اللقاء فيقول: «... ودخلت عليه بخيمة جلوسه، متكئا على مرفقه، وصحاف الطعام تمر بين يديه تشريها إلى عصب المغسل، جلوسا أمام خيمته حلقا حلقا. فلما دخلت عليه، فانحنيت بالسلام وأميت إيماءة الخضوع، فرفع رأسه، ومد يده إلي فقبلتها، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت، ثم استدعاني من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم فأقعده يترجم بيننا».(عنان، 1933، ص48)

وتحدث تيمور لنك إلى المؤرخ وسأله عن أحواله وأخباره وسبب مقدمه الى مصر، ثم سأله عن المغرب ومدنه وأحواله وسلاطينه، وطلب إليه أن يكتب له رسالة في وصف المغرب، استطاع المؤرخ أن يقنع الرؤساء والفقهاء بالتسليم، فقد فتحت دمشق أبوابها للفاتح على إثر ذلك، وجاء القضاة والرؤساء وعلى رأسهم المؤرخ إلى معسكر تيمو لنك يقدمون له، الخضوع والطاعة. يقول لنا ابن خلدون أن تيمور لنك صرفهم واستبقاه حينا، ثم انصرف واشتغل أياما بكتابة رسالة في وصف بلاد المغرب حتى أتمها و قدمها إلى تيمور لنك فأمر بترجمتها إلى اللغة المغولية.(ابن خلدون، 1981)

قدم ابن خلدون هدية إلى الفاتح وهي مصحف رائق وسجادة أنيقة ونسخة من البردة وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة، ولما قدمها إليه وضع تيمور لنك المصحف فوق رأسه بعد أن عرف أنه القرآن الكريم، ثم سأله عن البردة وذاق الحلوى ووزعها على الحاضرين في مجلسه.

التمس المؤرخ منه في هذا المجلس أمانا للقضاة و العلماء فأجابه إلى طلبه وأصدر الأمان. لكن ابن إياس المؤرخ المصري يقدم إلينا في ذلك رواية أخرى فيقول لنا أن الذي قام بمفاوضة تيمور لنك في تسليم دمشق هو القاضي تقي الدين بن مفلح الحنبلي، وأنه هو الذي اختاره الزعماء لتلك المهمة، لأنه كان يعرف التركية وأنه هو الذي اقتاد وفد القضاة إلى الفاتح واستصدر منه الأمان (ابن إياس، 1984)، ولكن ابن عربشاه الدمشقي مؤرخ تيمور لنك الذي كتب تاريخه قريبا من هذه الحوادث يصف لقاء ابن خلدون للفاتح تحت أسوار دمشق على رأس العلماء والقضاة ويصور لنا في عبارة شعرية ساحرة منظر هذا اللقاء وما تخلله من أحاديث ومناقشات. (ابن عربشاه، 1882)

بعد أسابيع قلائل سئم ابن خلدون البقاء في دمشق وذهب إلى تيمور يستأذنه في العودة

إلى مصر فأذن له وطلب إليه في تلك المقابلة أن يقدم إليه بغلته إذا استطاع فأهداه المؤرخ إياها وبعث إليه تيمور ثمنها فيما بعد عقب وصوله إلى مصر، وغادر المؤرخ دمشق في شهر رجب سنة 803هـ/1400م لنحو شهرين فقط من مقدمه إليها، ويقول لنا أنه كتب إلى سلطان المغرب مولاه السابق، يصف هذه الحوادث وما دار بينه وبين تيمور لنك، ويصف له الفاتح عظم بأسه وشاسع ملكه، وروعة سلطانه.

3.عودة ابن خلدون إلى القاهرة

ما كاد ابن خلدون يستقر في القاهرة حتى عاد الى كرسي التدريس في مدرسة أو اثنتين. ثم ولي ابن خلدون القضاء للمرة الثالثة في أواخر شعبان أو أوائل رمضان[1]، فلبث في منصبه زهاء عام يعمل في جو يفيض بالأحقاد والخصومة، ولكنه يقول لنا إنه لم يحفل كعادته بمصانعة الأكابر وأنه استمر كما كان من القيام بالحق والإعراض عن الأغراض. فاضطرمت من حوله الدسائس القديمة، وعزل مرة أخرى في 14رجب سنة أربع 804هـ/1401م وولي مكانه جمال الدين البساطي في أواخر رجب، وهو ممن شغلوا المنصب من قبل. والظاهر أن المعركة كانت هذه المرة أكثر وضوحا وصراحة، وأن ابن خلدون عانى من حملات خصومه ما لم يعان من قبل. يقول ابن حجر والسخاوي في هذا الموطن : «... وادعوا عليه أمورا كثيرة أكثرها لا حقيقة له، وحصل له من الإهانة ما لامزيد عليه» (ابن حجر، 1998، ص159).

وهنا اشتدت المعركة بين المؤرخ وخصومه،والظاهر أيضا أن ابن خلدون كان يعتمد في مقاومة خصومه على عوامل وقوى ليست أقل أثرا مما يعتمدون عليه، فإنه لم يمض على ولاية البساطي إلا ثلاثة أشهر حتى عين ابن خلدون للمرة الرابعة في 16 ذي الحجة من نفس السنة، واستمر في منصب القضاء عاما وشهرين، ثم رجحت كفة خصومه فعزل في السابع من ربيع الأول سنة 806 هـ/1403م. وأعيد البساطي في الشهر نفسه، ثم عزل في شهر رجب سنة 807 هـ وأعيد ابن خلدون للمرة الخامسة في شعبان سنة 807هـ/1404م، ثم عزل بعد ثلاثة أشهر في 26 ذي القعدة من نفس العام، وأعيد خصمه القديم جمال الدين الأقفهي فلبث ثلاثة أشهر، ثم عزل وخلفه جمال الدين التنسي لمدة يومين فقط، ثم أعيد البساطي في ربيع الأول سنة 808هـ/1406م، وعزل في شعبان من العام ذاته، ثم أعيد ابن خلدون للمرة السادسة فلبث في منصبه بضعة أسابيع فقط[2].

1. يذكر ابن خلدون في التعريف أن تعيينه هذه المرة كان في أواخر شعبان، ولكن ابن تغري بردي يؤرخ هذا التعيين بيوم السبت 3 رمضان سنة 803هـ/1400م.
2. راجع أدوار هذه ا لمعركة وحوادث التعيين والعزل، أنظر: ابن خلدون في التعريف، ص 147، والسيوطي، حسن المحاضرة ، ص 123.

وفي السادس والعشرين من رمضان سنة 808هـ/16 مارس 1406م توفي المؤرخ، قاضي المالكية وقد بلغ من العمر الثامنة والسبعين من حياة باهرة حافلة بجليل الحوادث وروائع التفكير والابتكار، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر.(السخاوي، 1992)

على أن ابن خلدون كان من وجهة أخرى يحظى بتقدير فريق قوي من الرأي المصري المفكر، وكان على رأس هذا الفريق المؤرخ تقي الدين المقريزي. الذي يتحدث عن شيخه ابن خلدون بمنتهى الخشوع والإجلال وينعته بشيخنا العالم العلامة الأستاذ قاضي القضاة[2]. ويترجمه في كتابه «درر العقود الفريدة» بإسهاب وإعجاب، وبتقدير مقدمة شيخه إلى الذروة فيقول: «... لم يعمل مثلها، وأنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها، إذ هي زبدة المعارف والعلوم ونتيجة العقول السليمة والفهوم، توقف على كنه الأشياء، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء، وتعبر عن حال الوجود، وتنبئ عن أصل كل موجود، يلفظ أبهى من الدرر النظيم، وألطف من الماء سرى به النسيم».(السخاوي، 1992، ص371)

وقد تأثر المقريزي بنظريات ابن خلدون تأثرا كبيرا، وظهر هذا في كتابه «إغاثة الأمة بكشف الغمة».(السخاوي، 1992) الذي يتحدث فيه عن محن مصر منذ أقدم العصور إلى عصره، وينحو في الشرح والتعليل منحى شيخه ابن خلدون في مقدمته. فيقدم ملخص لما جازته مصر من محن الغلاء والشرق منذ الطوفان إلى عصره، ثم يفرد لنا فصلا يتحدث فيه عن الأسباب التي نشأت عنها هذه المحن وأدت إلى استمرارها طوال هذه الأزمان.

وفي هذا الفصل نرى منهج ابن خلدون في البحث والتعليل واضحا، بل نرى المقريزي يستعمل ألفاظ شيخه وعباراته مثل «أحوال الوجود وطبيعة العمران وما إليها». هكذا ينحو المقريزي في الشرح والتعليل، كما نلمس أثر المؤرخ واضحا في منهج تلميذه، ونستطيع أن نجد كثيرا من أوجه الشبه بين ما يعرضه المقريزي في رسالته، وبين ما كتبه ابن خلدون في مقدمته عن طبيعة الملك وعوامل فساده، وعن السكة، وعن أثر المكوس في الدولة، وأثر الظلم في خراب العمران، وكيف يسري الخلل إلى الدولة وتغلبها وفرة العمران والغلاء والقحط، وغير ذلك مما يتعلق بانحلال الدول وسقوطها. (ابن خلدون، 1981)

بل نستطيع أن نلمح مثل هذا الأثر في بعض ما كتبه السخاوي في كتابه «الإعلان بالتوبيخ» عن قيمة التاريخ وأثره في دراسة أحوال الأمم. وهناك مؤرخ آخر هو أبو المحاسن بن تغري بردي يشاطر شيخه المقريزي تقديره لابن خلدون ويشيد بمقدرته ونزاهته في ولاية القضاء ويقول لنا إنه باشر القضاء بحرية وافرة وعظمة زائدة وحمدت سيرته.

1. ذكر المقريزي شيخه ابن خلدون في موضعين من الخطط، ج3، ص 123 – 309.

ويظهر أثر ابن خلدون أيضا في اعتماد بعض أكابر الكتاب المصريين المعاصرين عليه والاقتباس من مقدمته وتاريخه. ومن هؤلاء أبو العباس القلقشندي صاحب كتاب «صبح الأعشى» فإنه يقتبس من ابن خلدون في مواضع شتى من موسوعته. هذه صورة دقيقة شاملة لحياة ابن خلدون في مصر، وصلاته بحياتها العامة، وأثره في حركتها الفكرية المعاصرة. وهذه الحقبة من حياة المؤرخ، وهي طويلة امتدت أربعة وعشرين عاما، تختلف في نوعها وظروفها عن حياته بالمغرب، ففي المغرب عاش ابن خلدون بالمغرب الأقصى سياسيا يتقلب في خدمة القصور المغربية، ويخوض غمار دسائس ومخاطر لانهاية لها، ولكنه عاش في مصر عالما وقاضيا،وإذا استثنينا مفاوضاته مع تيمور لنك في حوادث دمشق، وسعيه إلى عقد الصلة بين بلاط القاهرة وسلاطين المغرب، فإنه لم يتح له أن يؤدي في سير السياسة المصرية دورا يذكر، وإذا كان ابن خلدون قد خاض في مصر معترك الدسائس أيضا فقد كان هذا المعترك محليا محدود المدى شخصيا في نوعه وغاياته.

1.3 حرقة الغربة وفراق الأوطان

كانت حياة ابن خلدون في مصر أكثر استقرارا ودعة، وأوفر ترفا ونعمة من حياته بالمغرب، ولكن الظاهر أن سحبا من الكآبة والألم المعنوي كانت تغشى هذه الحياة الناعمة. فقد كان ابن خلدون في مصر غريبا بعيدا عن وطنه وأهله، وكان يعيش في جو يشوبه كدر الخصومة وجهد النضال. استقر ابن خلدون في مصر ما يناهز ربع قرن حتى توفي بها عام 808هـ/1406م عن عمر بلغ 78عاما، وترك أثرا كبيرا في الفكر المصري والعربي والعالمي. ونستطيع أن نلمس ألم البعد في نفس المؤرخ في بعض المواطن، فهو يذكر غربته حين يتحدث عن اتصاله بالسلطان إثر مقدمه ويقول إن السلطان «أبر مقامه وآنس غربته»، وهو يكشف لنا عن هذا الألم في قصيدة طويلة نقلت إلينا التراجم المصرية منها هذه الأبيات المؤثرة :

أسرفن في هجري وفي تعذيبي وأطلن موقف غربتي ونحيبي
وأبين يوم البين موقف ساعة أو داع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهد الظاعنين وغادروا قلبي رهين صبابة ووجيب

ولا ريب أن هلاك أسرة المؤرخ كانت عاملا في إذكاء هذا الألم المعنوي، وهو يحدثنا عن هذه الفاجعة بلهجة الحزن واليأس حين يقول: «فعظم المصاب والجزع ورجع الزهد».

كان المؤرخ يؤثر حياة العزلة في فترات كثيرة، ويشير إلى ذلك في بعض المواطن، حيث يقول لنا أنه : «لزم كسر البيت ممتعا بالعافية لابسا برد العزلة». وتشير التراجم المصرية إلى هذه العزلة فيقول لنا السخاوي: «... ولازمه كثيرون في بعض عزلته فحسن خلقه معهم وباسطهم ومازحهم». (السخاوي 1992، ص370). كان ابن خلدون يشتغل في هذه الفترات

بمراسلة أصدقائه بالمغرب والأندلس من السلاطين والأمراء والفقهاء، وهو يشير إلى ذلك في عدة مواضع.

2.3 ابن خلدونفي آخر أيامه

قد يكون من الشائق أن نعرف أين كان يقيم المؤرخ بالقاهرة في حي من الأحياء الواقعة على النيل ولعله جزيرة الروضة أو لعله بالضفة المقابلة من الفسطاط، حيث كانت لا تزال باقية من الأحياء الرفيعة التي قامت هنالك منذ خطت الروضة وعمرت وصارت منزل البلاط في أواسط القرن السابع، وسكن الكبراء والسراة في الضفة المقابلة لها من الفسطاط، ويرجع هذا الفرض أن المدرسة القمحية التي كان يدرس فيها ابن خلدون بلا انقطاع كانت على مقربة من هذا الحي.

وأما مثوى المؤرخ الأخير، فقد ذكر لنا السخاوي أنه دفن بمقابر الصوفية بشمال القاهرة خارج باب النصر، ويحدثنا المقريزي عن موقع هذه المقابر (المقريزي، 1998). وقد كانت تقع بين طائفة من تراب المدافن التي شيدها الأمراء والكبراء في القرن الثامن خارج باب النصر في اتجاه الريدانيه «العباسية» ومقبرة الصوفية هذه أنشأها صوفية الخانقاه الصلاحية في أواخر القرن الثامن في هذا المكان وخصصت لدفن الصوفية.

كان ابن خلدون ابن الثقافة الإسلامية الشرعية اللغوية، وكان عميقا في قراءته للقرآن، واعتماده عليه، وانطلاقه منه، وقد حرص وهو يبسط نظرية العمران على تدعيم كلامه بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمأثور عن الصحابة، أو التابعين، ومن ناحية أخرى، حرص على أن يختم كل فصل من فصول المقدمة بآية قرآنية أو أكثر،أو حديث نبوي، أو ابتهال إلى الله، في نهاية فصول المقدمة، وهذا يدل على جذور ثقافة ابن خلدون وأفكاره، لكن هذا لا يعني أن ابن خلدون كان ابن بيئته، وحصاد مجتمعه، الذي عاش فيه. هكذا نجد أن ابن خلدون عاش في المغرب سياسيا ولكنه عاش في مصر عالما وقاضيا، ماعدا الفترة التي أتصل بها في دمشق بتيمور لنك وما يمتاز به ابن خلدون عن جميع المؤرخين المسلمين أنه نظر إلى التاريخ كعلم يستحق الدرس لا رواية تدون فقط.

خاتمة

رغم قساوة أحداث ذلك العصر الذي عاش فيه ابن خلدون، ورغم شدة حلكته إلا أن ذلك لم يضعف من عزيمته، بل لقد كانت تلك الأحداث بمثابة الحافز الذي جعله يصوغ نظريات، ويرسم الطريق لمن بعده، فكان ينظر من خلال ما عاين في حياته بعين الحسرة والألم، وينظر بعينه الأخرى المليئة بالأمل إلى مستقبل يتمناه، ليخرج من تلك الأحداث بحلول يراها تساهم في عملية الإصلاح لجيله وللأجيال الإسلامية من بعده.

وفي هذا المقام وصف الدكتور عبد الحليم عويس ابن خلدون إذ يقول: «... إن ابن خلدون لم يكن رجلاً يستسلم للفكر الساكن، ولا للواقع الجامد، كما لم يكن رجلاً يقف متفلسفاً أمام الوقائع، أو مسجلاً لها فحسب، بل كان رجلاً من صنّاع التاريخ، يغوص فيه مهما كانت الأوحال والأخطاء، ويتقلب يميناً ويساراً، لعله يجد ضالته، يتقلب بين ملوك الطوائف لعله يجد فيهم راشداً، أو لعله يستطيع أن ينفخ في جذوة الدولة الأموية الأندلسية المنطفئة، وقد ذاق الرجل السجن والتشريد، ويئس من الناس، ومال إلى العزلة، وكان يملك عقلاً كبيراً قادراً على التفاعل الخلاق، ليس بالثورة ولا بالخيانة للتراث، ولا بالاستعلاء عليه، ولا برميه بالماضوية والجمود، والتاريخية الجامدة، ولكن ببعث الروح فيه، والانطلاق من قاعدته، كما ينطلق الصاروخ إلى الآفاق من قاعدة صلبة مثبتة بالأرض».(عويس، 1416هـ، ص36)

ويضيف د. عويس حول صمود ابن خلدون أمام هذه المحن وحسن تصرفه واتصاله بالقيم المؤثرة: «لقد كان عصر ابن خلدون عصر تقليد وجمود، لكن ابن خلدون أحسن القفز إلى المصادر الأصلية، بعيداً عن ضغوط الواقع الجامد، وعن وطأة اللحظة التاريخية بكل أثقالها السياسية والاجتماعية والثقافية، وأحسن الاتصال المباشر بالقيم والأفكار الدائمة الحياة في القرآن والسيرة والسنة، وعصور التألق والازدهار، والتجارب الوضيئة والمستمرة في العصور». (عويس 1416هـ، ص39) هذا هو الواقع الذي عاشه، وهذه هي معطيات ذلك العصر، فكان كما ينبغي أن يكون، لا تعيقه الأحداث، ولا تحبطه الآلام، إنما تشد من عزمه وعزيمته، وترفع فيه معاني الشوق نحو النجاح.

المراجع

. ابن الخطيب محمد لسان الدين، 1955. الإحاطة في أخبار غرطانة، ج 1، تحقيق: محمد عبد الله عنان ، دار المعارف، مصر.

2. ابن أياس الحنفي، محمد بن احمد الحنفي، 1984. تاريخ مصر المسمى بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية للكتاب، مصر.

3. ابن بطوطة محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم، 1987. تحفة النظار في غرائب الأنصار وعجائب الاصفار، تحقيق: محمد عبد المنعم العريان، ط 1، دار إحياء العلوم، بيروت.

4. ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي، 1984. المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

5. ابن حجر، ابو الفضل احمد بن علي بن محمد، 1998. رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق: علي محمد عمر، ط 1، مكتبة الغانجي، القاهرة.

6. ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد، 1981. العبر وديوان المبتدى والخبر، دار الكتاب

اللبناني، بيروت.
7. ابن عربشاه شهاب الدين احمد الدمشقي، 1882. عجائب المقدور في نوائب تيمور في أخبار تيمور لنك، ترجمة: نظمي زاده البغدادي، ط 2، كلكتا.
8. بدوي عبد الرحمان، 2006. مؤلفات بن خلدون، ط 1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
9. الحاجري محمد طه، 1980. ابن خلدون بين حياة العلم ودنيا السياسة، دار النهضة العربية، بيروت.
10. حسين محمد الخضر، 2012. حياة ابن خلدون، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.
11. الزركشي ابي عبد الله محمد بن ابراهيم، 1966. تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس.
12. السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمان، 1992. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، تحقيق : محمد جمال القاسمي، ط 1، دار الجيل.
13. السيوطي جلال الدين ابو الفضل عبد الرحمان بن ابي بكر، 1967. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، ط 1، دار إحياء الكتب العربية، مصر.
14. عنان محمد عبد الله، 1933. ابن خلدون حياته وتراثه الفكري، ط 1، دار الكتب المصرية، القاهرة.
15. عويس عبد الحليم، 1416هـ. التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون، كتاب الأمة، العدد 50 السنة 15، قطر.
16. المقريزي احمد بن علي بن عبد القادر العبيد، 1997. السلوك في معرفة الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط 1، دار الكتب العلمية، مصر.
17. وافي علي عبد الواحد، 1962. عبد الرحمان بن خلدون، حياته وأثاره ومظاهر عبقريته: أعلام العرب، مكتبة مصر، القاهرة.